السياسة الفرنسية ومدى تأثرها بالأفكار المتباينة في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.*

إذا كانت فرنسا قد حققت من خلال ثورتها عام 1789، وبطرق جد صعبة انتصارا على الحكم المطلق، وخلصت الشعب من سيطرة الطبقة النبيلة ورجال الدين، وأعطت حقوقا للإنسان في المساواة والعدل؛ فإنها من جهة أخرى قد وضعت حدا نهائيا للنظام الاقطاعي البائد– بينما كان في انجلترا وبعض الدول الاروبية الأخرى الصراع قائما بين النظام الأرسطوقراطي المحافظ والتيارات البرجوازية الناشئة التي تسعى إلى قلب الأوضاع لصالحها بالعمل السياسي السلمي دون اللجوء إلى ثورة كما حدث في فرنسا حيث كانت إنكلترا تتمتع بتقاليد عريقة في الميدان البرلماني.

وبها أصبح الرأسمال هو صاحب الريادة في فرنسا. وأصبحت الحكومات تدعم هذا النظام وترسي أسسه منذ بداية القرن الثامن عشر بما وضعته من مؤسسات اقتصادية وعسكرية لتثبيته وتعميمه داخل فرنسا وخارجها. وقد عمل نابليون الأول على نشر مبادئ الثورة الفرنسية التحريرية كما أقام هياكل أصبحت منطلقا نحو ظهور القوميات في أوروبا والحركات التحريرية بها.

ومثلما نمت البرجوازية في أحشاء النظام الاقطاعي فإن البرجوازية نفسها ولدت عدة أفكار أصبحت تسعى للقضاء على النظام البرجوازي والرأسمالي. وذلك بتحجيمه والعودة به الى الوراء وهوما كان يسعى إليه المحافظون الأرسطقراطيون والاقطاعيون،

ظهرت أن هذا الفكر كان محكوم عليه بالفشل ومستقبله محدود لأن البرجوازية قضت على العديد من مقوماته وهياكله.

ومن جهة أخرى قامت القوى الاجتماعية الأخرى والتي لم تتحقق آمالها بعد حيث أصبحت تقاسي من النظام البرجوازي ألوانا من الاضطهاد والاستغلال، وكما قال ماركس: "هذا الاستغلال الذي كان ماركس يراه مقنعا بالأوهام الدينية والسياسية، وضعت البرجوازية استقلالا مفتوحا مباشرا وقاسيا...."

ولد هذا الوضع احتجاجا وسخطا ضد هذا النظام. ابتدأ على شكل المطالبة بإصلاحات، وتحسين الأوضاع المادية والاجتماعية للجماهير، والجماهير العمالية على الخصوص واتخذ أشكالا متعددة في أوروبا بصفة عامة وخاصة في فرنسا، وسرعان ما تطورت الفكرة إلى لاتجاهات تنادي ليس فقط بمحاولة أرغام السلطات على الإصلاح وإنما الوصول إلى السلطة من أجل التأثير أكثر في المياه السياسية والاقتصادية، تم

*–د. محمد موفقس– قسم التاريخ وعلم الآثار– كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية– ج. وهران.

تطورت هذه الحركة أكثر لتطالب بالأخذ بزمام الأمور والوصول نهائيا على البرجوازيـــة، بعـــد تحقيـــق دكتاتورية العمال كخطوة من أجل تأسيس نظام شيوعي يجمع كل عمال العالم وشعوبه.

. وهكذا سنتحدث عن الأفكار الثلاثة التي ظهرت في أوروبا بصفة عامة وفرنسا بصفة خاصـــة، وهي: الفكر البرجوازي الليبرالي– الفكر الأسطقراطي المحافظ والفكر الاشتراكي، سنتكلم عن آثار هذه الأفكار وخصوصا الفكر الليبرالي المشجع على الاستعمار وغزو الأسواق البعيدة وسلب الشعوب خيراتها وحريتها.

الأفكار السياسية وآثارها:

أولا: الفكر البرجوازي الليبرالي: لقد أستمد هذا الفكر أفكاره منذ البداية من المثل الانجليزي الذي كانـــت لـــه تقاليد عريقة في النظام التمثيلي، ثم تعمق الوعي بضرورة الحصول على حرية أوسع تسمح للفرد بتقرير مـــصيره وهي فكرة أدخلها الفرنسيون اللذين شاركوا في حرب التحرير الأمريكية[1] في أواخر القرن الثامن عشر.

وكان هذا الفكر الجديد يمثله البرجوازيون الطامحون إلى المشاركة في حكـــم وتـــسيير الـــبلاد بالحصول على مناصب سياسية تخولهم تأسيس نظام سيستجيب لمصالحهم والوقوف في وجه سلطة النظام الإقطاعي بكل فئاتـــــه.....

اتجه البرجوازيون الليبراليون إلى الجماهير الشعبية المكونة من الطبقات الدنيا للمجتمع الفرنـــسي لتأليبها وتنظمها للقيام بحركة احتجاجات والمطالبة بالإصلاح، تمخضت عن النهاية عند قيام الثورة 1789، وكان البرجوازيون يمنون المشاركين في الثورة بإعلان حقوق الإنسان، والمناداة بشعار "الحرية، المـــساواة، الايخاء" بينما كان الهدف الأسمى للبرجوازية هو القضاء على الإقطاعية، والحكم المطلق وإعلان الجمهورية لا لكون ذلك ملائما لإقرار نظام الديمقراطي فحسب وإنما لكونهم رأوا فيها الوسيلة الملائمـــة لفـــرض سيطرتهم وتوسيع ثرائهم.

وتمثلت الأدوار القيادية للفكر الليبرالي في عدة نواد أشهرها:

نادي الجينرديين: الذي كان يمثل الجناح الأيمن للثورة على الصعيدين الاجتماعي والاقتـــصادي وسياسيا كان أعضاؤه يمثلون التطرف في البداية إذ كانوا ميالين للنظام الجمهوري– أما هـــدفهم فكـــان تأسيس وتنشيط الصناعة والتجارة– وحماية الملكية الفردية، ونظم الحرية الاقتصادية– وفي الأخير بـــدأوا يبتعدون عن الثورة ويحاولون تفهم الأسطقراطية من أجل الحفاظ على مصالحهم المهددة[2].

نادي اليعاقبة: والذي كان معتدلا في البداية حيث كان هدف زعمائه، المحافظة على مكتـــسبات الثورة مع النظام الدستوري الملكي– غير أنهم بعد ذلك يذوبون في موجة من الثوار من النوع الجديـــد، واللذين كانوا يحلمون بثورة اجتماعية بعد تحقيق الثورة السياسية وأصبحت بذلك مواقفهم أكثر تطرفا[1].

وقد أرسى نابليون بونابرت مؤسسات الفكر الليبرالي البرجوازي وذلك بما جنده خلال حكمه الامبراطوري من وسائل للتوجيه ومراقبة الرأي – الشيء الذي أظهر طبيعة هذا النظام بتناقضاته المتمثلة في وجود طرق ليبرالية إلى جانب طرق قمعية وهوما جعل فرنسا تعود إلى النظام الملكي البربوني المتمثل في الفكر الأرسطوقراطي كما سنرى ولم يعد الليبراليون إلى السلطة إلى بعد ثورة جويلية 1830 وتأسيس الملكية الليبرالية المتمثلة في حكم لويس فيليب (1830– 1848) وتطورت وسائل هذا الفكر حيث أصبح يعتمد على الأرسطوقراطية المالية، بينما ظلت البرجوازية المالية تمثل المعارضة الجمهورية وابتداء من 1848 وتأسيس الجمهورية الثانية أصبح الفكر الليبرالي يهتم بصفة واضحة بفكرة الاقتراع العام ويروج لها، حيث أصبحت مركز اهتماماته واهتمام كل القوى الاجتماعية. وكان الاقتراع العام هوالذي أعطى السلطة للبرجوازية، وأظهرها بمظهر الشرعية والممثلة لرغبة الجماهير[2].

غير أن وجودها في السلطة جعلها تسعى إلى ترك العمل بالاقتراع العام حتى تحافظ على مصالحها وامتيازاتها في ظل النظام الإمبراطوري الثاني (1852– 1870) وذلك من أجل تدعيم السلطة التنفيذية على حساب السلطة التشريعية، وفرض ديمقراطية واحدة هي ديمقراطية الطبقة البرجوازية الحاكمة.[3]

وأثناء الجمهورية الثالثة (1870–1914) يطور النظام الليبرالي من أساليبه الراقية إلى فرض دكتاتورية الرأسمالية والتوسع الاستعماري الذي إنطلق بقوة منذ 1830 ولولأغراض مختلفة، ووقف هذا النظام عائقا في وجه المطالب الاجتماعية للجماهير الكادحة والشعوب المقهورة.

ثانيا: الفكر الأرسطقراطي المحافظ: مثل هذا الاتجاه، خصوصا الإقطاعيون الملكيون والنبلاء القدامى ورجال الدين، الذين كانوا في سعي إلى العودة إلى مجدهم الغابر واسترجاع ما فقدوه أثناء ثورة 1789 البرجوازية التي حطمت النظام الملكي الاستبدادي، الذي كان يضمن مصالح الإقطاع والاسطقراطية.

ظل هذا الفكر حيا في المنفى حيث كان يتمتع بدعم انجلترا، كما وجد مدافعا عن مصالحه في الحلف المقدس، المؤسس في 1815، للمحافظة على الأنظمة الملكية والإقطاعية، من طرف روسيا، والنمسا، وبروسيا[4].

عاد هذا الفكر هكذا إلى البروز ما بين 1814 و1830 متمثلا في حكم آل بربون وأصبح الحكم للملكيين المتطرفين، واستعاد بذلك بعض الأرسطقراطيين والنبلاء بعض نفوذهم. غير أن هذا النظام قوبل بمعارضة شديدة، ومن طرف الأفكار الأخرى وعلى رأسهم الليبراليون المالكيون والجمهوريون. وهوما دفع بالمحافظين إلى إقرار ملكية دستورية، كانت السلطة التشريعية فيها مكونة من غرفتين:

الأولى يعين الملك أعضاء لها. والثانية منتخبة بالاقتراع الضيق، فيه حق الانتخاب للرجال الذين يدفعون مقدار 300 فرنك كضرائب مباشرة، وكان النائب نفسه يدفع 1000 فرنك.[5].

ويمكن القول بأن فترة سيطرة آل البربون المتطرفة كانت بداية للحملات الاستعمارية في افريقيا وامريكا- وهي الحملات التي ستواصلها مختلف الحكومات المتعاقبة على حكم فرنسا خلال القرن 19 وبداية القرن العشرين- وهكذا فإن الحملة على الجزائر لا تدخل في نطاق السياسة الليبرالية البرجوازية بل كانت فقط فرصة للسلطة الأرسطقراطية الملكية من أجل تحويل اهتمامات الشعب الفرنسي عن السياسة الداخلية واعطاء نوع من المجد الذي كان قد أحسن به الفرنسيون وأصبحوا يحنون إليه- عهد توسعات نابليون، ثم الامبراطورية الثانية[6].

غير أن هذا الفكر لم تكن تمثله إلا طبقة واحدة، لم تجد دعما من الطبقات والشرائح الأخرى للمجتمع الفرنسي- ولذلك لم تصمد أمام الحصار المفروض عليها من طرف الجماهير في جبهة موحدة فتحول فريق من أتباعه إلى الفكر الليبرالي بينما ظل فريق آخر يمثل معارضة في الحكومات المتعاقبة في فرنسا.

ثالثا: الفكر الاشتراكي والعمالي:

الاشتراكية الطوبابوية: لقد برز هذا المذهب في البداية في شكل حركات مساواتية وأفكار طوباوية في مواجهة سلبيات النظام الرأسمالي- وقد امتازت فرنسا بكثرة مفكريها ومحاولي الإصلاح بها منذ ثورة 1789.

ومن ضمن النوادي التي لعبت دور القيادة ابان الثورة وأصبحت له اتجاهات مساواتية، نادي اليعاقبة الذي انبثقت عنه أول حركة ذات طابع الشيوعي مساواتي- تمثلت فيها سمي " بمؤامرة بابوف " واليعاقبة، اسمهم الحقيقي" جمعية أصدقاء الدستور" وأخذوا يسيرون نحوالتطرف، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وكان بابوف (1760-1797) صاحب شعار "خيرات الأرض للجميع والأرض ليست لأحد"[7].

وكون جمعية اللمتروليين أوالمتساوين" التي أراد بها الاستيلاء على السلطة لفائدة الكادحين بعدما تبين له أن الثورة لم تخدم مصالح الذين أكتووا بنارها طامحا بذلك الى تحقيق المساواة التامة" غير أن جهاز المراقبة البوليسي قد كشف المؤامرة وقبض بابوف وجماعته سنة 1796 وأعدموسنة بعد ذلك التاريخ[8].

ومن المفكرين الطوباويين الذين أرادوا تحسين الظروف المادية للحياة ولكل أفراد المجتمع وحلم المحضوضين منهم.

ومن أجل ذلك كان هذا النوع من المفكرين يوجهون النداء إلى المجتمع بكامله، وبدون تمييز، وأكثر من هذا فقد كانوا يفضلون توجيه النداء إلى الطبقة المسيطرة اعتقادا منهم أنها هي الوحيدة التي تستطيع إصلاح الأوضاع.

وظهروا في مرحلة لم تحسم فيها بعد المعركة بين البرجوازية والإقطاعية ولذلك فرغم توصلهم الى إدراك الصراع الطبقي بين البروليتاريا والبرجوازية إلا أنهم لم يهتدوا إلى طريقة الصراع الناجعة ولم يحاولوا

من أجل ذلك إتباع الطريق السياسي أوحتى الثوري بل أرادوبلوغ هدفهم سلميا وعن طريق الإقنـــاع[9].

ومن بين المفكرين الطوباويين:

1–سان سيمون: (1660–1825) منشئ الفكر السانسيموني الذي كان يهدف الى القضاء على استغلال الإنسان للإنسان.

2–شارل فوريي (1772– 1837) الذي كان يرمي الى تكوين مجتمع عالمي يعيش فيه الناس حسب أدواقهم وقدراتهم وفق معطيات تتوفر فيها شروط موضوعية.

3–لويس بلان (1811– 1882) والذي طالب بتكوين مشاغل جماعية مسيرة من طرف العمال أنفسهم وممولة من طرف الدولة ويجعل منها تعاونيات حقيقية للإنتاج.[10]

4–برودون(1809– 1864) كان هذا الأخير ضد الملكية الخاصة حيث يقول: "الملكية سرقة"[11]

لكنه لم يكن ضد أية ملكية بل الملكيات الكبرى فقط بينما الملكيات الصغرى العائلية كان يسميها بحيازات وبذلك يضفي عليها طابع الشرعية– وقد انتشرت أفكار هؤلاء في الأوساط المثقفة والبرجوازية والجماهير الشعبية، ولعبت الاشتراكية دورا بارزا في الجمهورية الثانية إلا أن ذلك لم يدم طويلا[12].

الاشتراكية العلمية: لقد برزت واضحة المعالي مع البيان الشيوعي الماركسي الذي وضعه بمناسبة انعقاد مؤتمر المجتمع العمالي العالمي (نوفمبر– ديسمبر 1847) استجابة لطلب رابطة الـــشيوعيين المجتمعـــة بلندن– وقد أبرز هذا البيان أن تاريخ كل المجتمعات لم يكن سوى تاريخ صراع الطبقات[13]، وأن الصراع القائم اليوم هوبين البروليتاريا والبرجوازية، وكان شعار البيان: "بروليتاريو العالم إتحدوا"[14].

ويسعى هذا الفكر الى إقرار ديكتاتورية البروليتاريا كوسيلة الى تأسيس مجتمع شيوعي وأن السبيل الى ذلك ليس فقط الى البحث على الوصول الى السلطة من أجل تحقيق هذا المبدأ وإنما القضاء نهائيا على النظام البرجوازي وكل مؤسساته وإقامة مؤسسات جديدة تتولى البروليتاريا إدارتهـــا لـــصالح الجمـــاهير الكادحة.

وقد تطورت هذه الأفكار على يد اشتراكيين آخرين سموا بالماركسيين، ومنهم ليـــنين الـــذي لم يكتف بالنظر إلى صراع البروليتاريا ليتخذ منها منهجا قوميا، وإنما جعل منها منهجا عالميا، لأن البرجوازية هي واحدة في كل مكان كما أن البروليتاريا حسب رأيه، وقرن نظام بروليتاريا بنظام الشعوب المضطهدة حيث تطور شعار النداء الشيوعي الماركسي– وأصبح (بروليتاريون العالم والشعوب المضطهدة اتحدوا").

وانطلاقا من 1848 الى 1871، ضلت فرنسا أول بلد عرف انتشارا واسعا بالفكر الماركسي. لقد حاول العمال تحقيق الاشتراكية عندما قاموا بثورة (بلدية باريس) وهي الأولى من نوعها في العالم[15].

وبطبيعة الحال فقد انتشر الفكر الاقتصادي الماركسي في مستعمرات الدول الغربية وفرنسا ومنها الهند والجزائر خصوصا بعد 1880.

إلا أن هذا الفكر قد عرف بعض التحريفات مع الأممية الثانية وتحول مركز تأثيره إلى روسيا، التي تعتبر أول بلد طبق فيه الفكر الماركسي قبل دول أوروبا، وذلك بعد قيام الثورة الاشتراكية بها في 1917، قبل نهاية الحرب العالمية الأولى بسنة. ثم أخذ الفكر ينتشر ويطبق في المستعمرات السابقة لروسيا القيصرية، وفي آسيا والتي كانت شكلت مع روسيا لإتحاد السوفيتي سابقا، وذلك بعد القضاء على الثورة المضادة والهجمة الامبريالية الخارجية.

غير أن يمكن القول بأن الفكر الاقتصادي الماركسي قبل الحرب الكونية الأولى كان ما يزال في الدهنيات والوعي العمالي ولم يمس كما ينبغي الواقع الملموس إلا بعد هذه الفترة. وقد وقف ماركس وانجليز ولينين ضد الاستعمار، حيث كتب الأول عن الاستعمار الانجليزي في الهند وكتب الثاني عن الاستعمار في الجزائر ونددا بأعماله.

الهوامش

1-BOTTIGELLI, Emile – genèse du socialisme-scientifique édition sociale-paris 1967 page 235.
2-A.BOSSUAT et E.BRULEY, Histoire contemporaine après 1789.- 13e edition
3-Librairie. A.HATIER Paris 1958- page 17.
4- عبد العزيز سليمان نوار – عبد المجيد النعنعي- التاريخ المعاصر- أوروبا- دار النهظة العربية –بيروت –ص45.
5- RAIN- PIERRE- histoire générale des peuples- tome II (sous la direction de maxime petit) librairie LAROUSSE- Paris 1926- page 24
6-MARX –KARL- " œuvre choisies" tome I edition du progrés, moscou 1970.page214
7-ENGELS- friedwich
8- MARX- KARL – TEXTE 1 philosophie et methode – edition sociales – Paris 1972 page 159.
9- A.BOSSUAT- histoire contemporaine après 1789- 13e edition- librairie.A.HATIER E.BRULEY-Paris- 1950- page 213
10- A.BOSSUAT – page 165 السابق المصدر
11-E.BRULEY
12-A.BOSSUAT PAGE 120 السابق المصدر
E.BRULEY
13-A.BOSSUAT histoire contemporaine après 1789-13 edition librairie A.HATIER-PARIS -1958 – PAGE 84
E.BRULEY
14- RAIN- PIERRE- histoire générale des peuples- tome II (sous la direction de MAXIME PETIT)librairie larosse- paris 1926 – page 24.
15-MARX KARL – œuvres choisies tome, edition du progrés- moscou 1970- page 139
16 - A.BROSSUAT histoire أنظر الصفحة 5 (اليعاقبة)
contemporaine après 1789- 13e edition- librairie A.HATIER paris-1958- page 209 E.BRULEY
17-MARX-KARL texte 1 philosophie et methode edition.sociales.paris 1972-page 35
18 -MARX-KARL المرجع السابق page 64
19- BOTTIGELLI, Emile – genèse du socialisme-scientifique édition sociale-paris-1967-p. 235.